بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 6 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:2021\\ م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

المحطة الثالثة: ترتبط في وجه استعمال اسم الإشارة الذي للبعيد ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ﴾ لماذا لم يقل هذه؟ وهذا السؤال عام، لا يختص بسورة لقمان، بل مثله أيضاً سورة البقرة ﴿ذلِكَ الْكِتاب لا ريب فيه﴾ وبشكل عام هناك كلام في استعمالات أسماء الإشارة في القرآن الكريم، في كثير من الموارد نرى أن الآيات تستعمل اسم الإشارة الذي للقريب، تستعمله في مورد البعيد، وكذلك العكس، حتى الآن توجد بعض الدراسات الحديثة، يسجل عند البعض كشبهة على القرآن الكريم بما يرتبط بأسماء الإشارة، في بعض الأحيان ﴿ذلِكَ الْكِتاب﴾ وفي بعض الأحيان ﴿وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَك﴾[1] فكيف نجيب عن هذه الشبهة؟

هذه المسألة حاربها النحاة قديماً، واختلفوا في توجيهها:

الجواب الأول: بعض النحاة أنكر من أصل أن تكون ذلك وتلك للبعيد، بل هي للقريب، فيكون هذا وذاك بينهما ترادف، وهذه وتلك بينهما ترادف، فالمشكلة إذن تنحل.

الجواب الثاني: بعض النحاة قارب المسألة بطريقة أخرى، أن هذا من خصائص الأسلوب القرآني، كأنه يريد أن يغلق باب السؤال ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُون﴾[2] أن هذا خصوصية الأسلوب القرآني يغير، كل يوم في شأن.

أما بالنسبة للجواب الأول: هذا خلاف ما عليه المحققين من علماء النحو. نعم، هناك إجماع على أنه في اسم إشارة للقريب، وفي اسم إشارة للبعيد، الخلاف بينهم أنه هل يوجد حالة متوسطة؟ يعني بلحاظ قربي وبعد المشار إليه هل عندنا ثلاث حالات أو عندنا عبارة فقط عن حالتين قريب وبعيد أم

---

[1] الأنعام 155

[2] الأنبياء 23

قريب ومتوسط وبعيد؟ وإلا في الكتب النحوية المفصلة ذكروا واستدلوا على وجود قريب وبعيد، بل ومتوسط، من خلال قاعدة متعارفة عند النحاة، وهي أن الزيادة في مبنى الكلمة يؤدي إلى الزيادة في معناها، ما عندنا زيادة في بنية الكلمة من دون أن يكون هناك زيادة في معناها، اسم الإشارة هو "ذا"، للمفرد المذكر، عندما نضيف له هاء يصبح "هذا" فقالوا الهاء للتنبيه، عندما نريد أن نضيف له الكاف، كاف الخطاب التي لا محل لها من الإعراب، تصبح "ذاك"، فيكون حينئذ للبعيد أو للمتوسط؟ على الخلاف، والدليل على أن هذا لا يكون للقريب، لا يدخل عليه هاء التنبيه، فلا يقال هذاك؛ لأن البعيد البعد لا يتناسب مع التنبيه، إلا على لغة قبيلة من العرب في بيت شعر كما في شروحات الألفية[3]:

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطّراف الممدّد[4]

يستعمل قول طرفة بن العبد هذاك، فما عليه إجماع علماء النحو ما عندنا كل أدوات الإشارة تستعمل بحالة واحدة.

أما بالنسبة للجواب الثاني: هذا في الواقع ربما تنفع كمقاربة نحوية، لأن النحاة غرضهم من استعمال آيات القرآن الكريم وأشعار العرب أخذ قاعدة على الجواز أو الشذوذ، وأما ليس من وظيفة النحوي أنه لماذا استعمل هذه الكلمة ولم يستعمل تلك، ولأجل ذلك عندما جاء أبو العباس الكندي وقال[5]: إني رأيت عجباً في لغة العرب، مرة يقولون زيد قائم، ومرة يقول إن زيداً قائم، ومرة يقولون إن زيد لقائم، ورابعة يقولون والله إن زيداً لقائم، ما هذا الحشو في لغة العرب، عندما قارب الجمل بمقاربة نحوية وقع في هذا الالتباس، ليس من وظيفة النحوي أن يقول: لماذا قال هذا ولم يقل ذاك، وإنما هو من وظيفة علماء البلاغة وعلماء المعاني، وهذا الأمر ليس مجرد صناعة، من يقرأ تلك المحاججات بين الذبياني وبين الأعشى وبين الخنساء وبين مجموعة من شعراء سوق عكاظ يرى أن هذه القواعد البلاغية التي تأسست بعد القرن الثاني للهجرة لها جذور تاريخية، وإن كانت الأسماء ابتكارية،

---

[3] شرح الاشموني لألفيه ابن مالك ج 1 ص 122

[4] هذا البيت لطرفة بن العبد، من معلقته. والغبراء: الأرض، وأراد ببني الغبراء: الفقراء الذين لصقوا بالأرض لشدّة فقرهم، أو الأضياف. الطّراف: بكسر الطاء وزن (كتاب) البيت من الجلد، وأهل الطراف الممدد: الأغنياء.

[5] دلائل الإعجاز في علم المعاني ج 1 ص 206 . روي عن ابن الأنباريّ أنه قال: ركب الكنديّ المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إنّي لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: «عبد الله قائم»، ثم يقولون «إنّ عبد الله قائم»، ثم يقولون: «إنّ عبد الله لقائم»، فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد.
فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم: «عبد الله قائم»، إخبار عن قيامه وقولهم: «إنّ عبد الله قائم»، جواب عن سؤال سائل وقوله: «إنه عبد الله لقائم»، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني. قال فما أحار المتفلسف جوابا.

وتعترض الخنساء على الشاعر الفلاني لماذا قلت هذه الكلمة، فيبين لها، بمقتضى القواعد الأدبية، وهذا موجود بينهم، هذه المقاربات النحوية لا تنفع لحل المشكلة.

وإنما الصحيح كما عليه علماء التفسير أن نقول: أسماء الإشارة التي للقريب وللبعيد قد تتبادل مكانها لنكتة أدبية، من قبيل الإشارة إلى بعد الشيء عن الوهم والشبهة والريب ﴿ذلكَ الْكِتاب لا ريب فيه﴾ لما كان في مقام التحدي، أن هذا الشيء الذي تشككون به، هو شيء بعيد المنال عن أفهامكم الملوثة، وإذا لم يكن المقام في مقام التحدي، وإنما في مقام تقريب الناس إلى الحق، يضع الكتاب أمامهم ﴿إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدي لِلَّتي هِيَ أَقْوَم﴾[6] ولم يقل "إن ذاك" إذن تختلف استعمالات أسماء الإشارة باختلاف موارد الجمل الواردة فيها.

فقد نستعمل اسم الإشارة الذي للبعيد للشيء القريب لبعده المعنوي، وقد نستعمل اسم الإشارة الذي للقريب لأجل التحقير، كقول المشركين: ﴿أَهذَا الَّذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُم﴾[7] استعمل "هذا" للتحقير، وقد يستعمل اسم الإشارة في مورد القريب للبعيد في صورة انقضاء الحديث عنه، ولو كان في جملة واحدة، لكن باعتبار أن الكلام ينقضي ويتصرم، فبعد انقضاءه يصح أن نستعمل اسم الإشارة الذي للبعيد ﴿قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِك﴾[8] ولم يقل بين هذا؛ لأن ذلك ترجع إلى فارض وبكر، لا فارض ولا بكر انقضى وتصرم، صار هذا ويتحدث عن شيء في الماضي، فاستعمل اسم الإشارة الذي للبعيد.

ففي كل موارد استعمالات اسم الإشارة إذا كان اسم الإشارة على وفق وضعه اللغوي لا يسأل عن علته؛ لأن هذا على وفق الأساس، إذا شيء قريب واستعملت اسم الإشارة الذي للقريب لا تقول لي لماذا؛ لأن هذه هي القاعدة، هذا هو الأصل، الذي يحتاج إلى تعليل وتبرير هو الذي يكون على خلاف الأصل، ففي كل موارد اسم الإشارة في القرآن الكريم التي تأتي على خلاف الأصل هناك نكات ينبغي التأمل فيها، وليست عشوائية، وباب الإشارة وباب اسم الموصول في القرآن الكريم من الموارد المهمة التي أبدع فيها الشيخ عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، هذه الآية التي في سورة يوسف

---

[6] الإسراء 9
[7] الأنبياء 36
[8] البقرة 68

عليه السلام، في اسم موصول وفي اسم الإشارة ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتي هُوَ في بَيْتِها﴾[9] لم يقل راودته امرأة العزيز، ولا راودته زليخة، ولا أي صفة من الصفات الأخرى، التي هو في بيتها، أنه راودته واحتالت عليه واستعصم يكون في أشد حالات استعصام، بخلاف امرأة تراودك في الشارع، تهرب منها، لا تريد أن الناس تتكلم عليك، لا يدل على عفتك، لكن امرأة أنت في بيتها، وغلقت الأبواب، وراودتك واستعصمت، فتدل على غاية العفة، فهذا المعنى لا تعطيه راودته زليخة أو راودته امرأة العزيز، لذا استعمل اسم الموصول.

وكذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَذلِكُنَّ الَّذي لُمْتُنَّني فيه﴾[10] مع أنه دخل عليهن بعد أن قطعن أيديهن، أن هذا الذي تلوموني فيه هذا ليس شخصاً عادياً، هذا في مكان رفيع، فتمام أسماء الإشارة التي تخرج عن أصلها القرآن الكريم لها نكاتها الخاصة بها التي تعرف بالتأمل.

فهذه الشبهة مندفعة من أساسها.

---

[9] يوسف 23

[10] يوسف 32